روايتان من شماليي افريقيا

Mohammed Dib, *Cours Sur la Rive Sauvage.* Editions du Seuil, 1964
Ahmed Sefrioui, *Le Chapelet d'Ambre.* Editions du Seuil, 1964

« على شاطىء مهجور » ، رواية محمد ديب الجديدة ، هي اول رواية تنشر في فرنسا لاي كاتب عربي جزائري منذ ان نالت الجزائر استقلالها. ومع ان احداث الكتاب تجري في فرنسا (دون ان يذكر اسم هذه البلاد فعلا) فان الكتاب يرمز الى العلاقة المتوترة بين البلدين ، اذ هو وصف انطباعي لمحاولات ايفان زهار ، بطل الرواية الجزائري الذي يروي القصة على لسانه ، ان يسوي اموره مع فرنسا والفرنسيين . وليس ثمة شك في ان البطل هو محمد ديب ذاته — خاصة اذا كان القارىء واقفا على حياة المؤلف نفسه وعلى مؤلفاته السابقة . فقد كانت رواياته الثلاث الاول تدور لحد على حياته هو ، وتصف حياة فتى عربي جزائري . كانت كتبا واقعية والوصف فيها مباشرا . وقبل خمس سنوات هاجر محمد ديب الى فرنسا ، تاركا مدينة تلمسان ، بالقرب من الحدود المغربية ، التي ولد فيها وعاش فيها حوالي ٤٠ عاما . ومنذ ذلك الحين اخذ ينحو اكثر فاكثر منحى انطباعيا وفكريا في كتاباته .

وهو يعود في روايته الجديدة الى ما يقرب من السيرة الذاتية ، الا ان الاحداث تجري جميعا داخل رأسه ، وكأنها كابوس طويل مديد . فالراوي ، مثلا ، على وشك الزواج من رضية ، التي يرسمها « كتجسيد ابيض وهاج للقوة » . ويقول الراوي : « وتقدمت نحوي ، وطعنتني في صدري . صعقتني الصدمة ، والدهشة ايضا . وانتظرت ان احس بالالم ، لكن لم يكن ثمة الم . وبعدها ، طعنتني من جديد ، عن تصميم هادىء كالسابق ، طعنتني مرات خمسا . لم يكن من جدوى في طلب مساعدة الناس من حولنا ، او في التوقع ان يحرك احدهم ساكنا للدفاع عني ... »

ترمز رضية الى فرنسا او الى الحضارة الغربية اجمالا ، وقد وجد محمد ديب ان الاقامة في فرنسا لم تكن بالضبط كما كان قد تخيلها ان تكون .

ويحتار في سبب اجتذاب رضية له . ويقيض له احيانا ان يؤوب عائدا لبلاده بدونها . ثم يفقدها في المدينة الكبيرة . ويقول الراوي : « اين اذهب الان ؟ من لحظة للحظة تضحي حريتي اصعب واصعب على التحمل ... ان ما اخذته على عاتقي تجربة ومحنة ؛ لكنها قد تعود بفائدة ، وقد تحمل الحرية والحب » .

ويهجر المدينة الى سواها ، لكنه يعاني ما كان يعاني من شعور بالعزلة والوحشة . وتبدأ اذ ذاك سلسلة من الحوادث ، يشاهد الراوي فيها نسوة اخريات يشابهن رضية شبها مدهشا . ويلقى نفسه سائرا في ممر ، عبر عدد كبير من الغرف التي ترقد في كل منها امرأة . ايتهن رضية الحقيقية وايتهن التقليد ؟ وفجأة ينهضن جميعهن من منامهن ، ويرحن يتحركن ويومئن حركات وايماءات متماثلة، الواحدة بعد الاخرى . ما نستنتجه من ذلك ان رضية — المثال — قد تجزأت ، وانها في كل مكان وفي لا مكان . الشيء الوحيد الذي يستطيع ادراكه هو اسف رضية على مثابرته على البحث عنها. وتريه الاقنعة الفارغة التي يتوجب عليها ان تلبسها كيما تري ذاتها .

وعندها يتذكر اسما غريبا من الماضي السحيق ، ويتلفظ به — هيل . وفي الحال تبزغ امامه امرأة مشعة ويحتجب كل شيء آخر عن العيان . وتقول له انه ينبغي عليه العودة الى المكان الذي ينتمي اليه . ويردف :

« لم اعر هذه الكلمات اهتماما ، اذ كانت قد اذهلتني، ضعضعتني ، النار المتوهجة التي تغلغلت في وفجرتني وبعثرت ذرات كياني في الكون . لكنها — رضية ، التي قد سميتها الآن هيل — لكنها اختفت فور تفوهها بتلك الكلمات . ولم تكن الروابط التي بيننا لتجدي شيئا » .

ويتضح الامر للقارىء. فمحمد ديب ، الذي نال ثقافة فرنسية وحظيت مؤلفاته برضى النقاد الفرنسيين (لقد نال عليها عددا من الجوائز الادبية الفرنسية) ، كون لذاته صورة مثالية لفرنسا ، ومن بعدها وجد ان الواقع يبعد بعض الشيء عن الصورة المثالية هذه . وهذا قد حصل للكثيرين من قبله . فالسفر لبلد اجنبي والاقامة فيه ، انما هو من كثير من النواحي كالزواج . ومحمد ديب يرسم مقابلة موقفة بينهما . وعلى المرء ، كما في الزواج ، ان يتقبل نقائص الطرف الآخر ومع مرور الزمن ان يحبه بكامله ، بنقائصه وبحسناته . لكن هذا يستغرق زمنا — وكما يقول المؤلف ، او راوي القصة : « كم من الزمن احتاج كيما اتحول من رضية الى هيل ؟ » او بعبارة اخرى ، من المثال الى الواقع . ثم تأتي الصرخة التي تمزق الفؤاد ، في آخر سطر في الكتاب : « من يتحدث ، على شاطىء مهجور ، عن مرور الزمان ! »

واذا كان المكان الذي يجد محمد ديب نفسه فيه (هو او اقرانه من كتاب شمالي افريقيا العرب الذين يقيمون في فرنسا) ليس ، على وجه التدقيق ، شاطئا مهجورا ، فانه في الواقع شاطىء اقل انفتاحا وأسوأ اضافة لهم منه لغيرهم من الاجانب . فالصراع بين فرنسا والجزائر لا يزال حديث العهد جدا.

ربما كان هذا سببا يجعله يجد ذاته على شاطىء مهجور . الا ان رواية محمد ديب ، كقطعة ادبية ، كأثر فني ، هي جهد قيم متماسك . والحق ان ما في اسلوب المؤلف وما في خياله من قوة يبعث على الدهشة. والتكنيك الذي يستعمله يذكّر القارىء بالفن التجريدي . وكان قد كتب روايته السابقة باسلوب مشابه ، وهكذا فانه يمكن القول بان محمد ديب يبتدع شكلا فنيا جديدا في كتابة الرواية ، ويشيد لنفسه مقاما فريدا في الادب الغربي .

محمد ديب اهم كاتب من كتاب شمالي افريقيا الذين يكتبون باللغة الفرنسية . ويكاد هؤلاء يكونون جميعا روائيين — في حين ان كتاب المغرب الذين يكتبون باللغة العربية يكادون يفضلون جميعا القصة القصيرة كوسيلة للتعبير . وربما كان هذا ناتجا عن طبيعة سوق الادب — فكل كاتب يريد ، بالطبع ، ان تحظى مؤلفاته بقراء . وسوق القصص القصيرة في فرنسا ، شأنها في اوربا بوجه عام ، محدودة جدا في الوقت الحاضر . غير ان الكتاب الذين يكتبون باللغة العربية ، الذين يعملون على نطاق اضيق ، ينتجون ادبا اصفى واخلص ، وهم اقل التزاما من الفريق الآخر . فهم ، بعكس مواطنيهم الذين يكتبون باللغة الفرنسية (والذين بالتالي لا ينسون انهم يخاطبون جمهورا باريسيا ان لم نقل اوربياً) ، لا يعنيهم غير فنهم ؛ ليست لهم قضية شاغلة ؛ في حين ان مواضيع الثورة والمكانة المعطاة للفرنسيين والامتيازات التي يتمتعون بها ترد باستمرار في مؤلفات كتاب شمالي افريقيا العرب الذين يكتبون بالفرنسية — او بالاحرى كانت ترد فيها حتى وقت قريب ، اي حتى ظفرت دول المغرب الثلاث باستقلالها . او ، بعبارة اخرى ، نستطيع ان نقول ان الكتاب باللغة الفرنسية كانوا اشد عنفوانا — ولا يزالون كذلك ، ان كان لنا ان نحكم عليهم من رواية محمد ديب الاخيرة .

غير انه من الخطأ ان نطلق احكاما تعميمية . وللتدليل على ذلك ، ها هي مجموعة احمد صفريوئي القصصية — (استثناء يبرهن على القاعدة ؟) فكتاب « مسبحة الكهرمان » يحوي اربع عشرة قصة — اربع عشرة حبة نقية تنتظم سلكا من موضوع الصراع بين قوى الخير والشر . ولد المؤلف في فاس قبل ٤٩ عاما ، وعاش حياته كلها فيها وفي الرباط . وعمل سنوات طويلة في معهد الفنون والصنائع في فاس ، ونلمح بوضوح في كتاباته حبه للحرف والفنون القديمة ولمن ما برحوا يزاولونها .

يستهل قصته « اناء الفخار » هكذا : « ان عبدالله يحيا كيما يبني ، ليس الا . فحرفته البناء ، وهو شاعر منذ مولده . ويعرف ذلك سكان البلدة، فلا يعهدون اليه بشغل ما . فهل ثمة من يعهد الى شاعر بان يبني له بيتا ؟ »

ويقطن عبدالله غرفة ، يشاركه فيها صانع سجاد هو لاهوتي في الوقت عينه . وفي اوقات فراغهما يعكف هذا على القراءة ويعكف عبدالله على الكتابة. يخط صفحة تلو صفحة ؛ وذات يوم يطلع رفيقه على شيء كتبه . فيقرأه صانع السجاد،

ويقول : « هذه قصة حسنة جدا ، عن الفخار » . ويجيب عبدالله : « ليس فيها شيء عن فخار » . ويقرأها صانع السجاد مرة ثانية ، ويصرخ بلهجة الظافر : « اني احب هذه القصة عن بائع ازهار». ويقول عبدالله: «وليس فيها اي‌شيء عن بائع ازهار ايضا » . وينسخها صانع السجاد بكاملها ، ويعرضها على عدد من اصدقائه . ولا يتمكن ايهم ان يقول له ما الذي تعنيه . لكن القارىء يعرف ، بالطبع.

وفي القصة المعنونة « في يوم من ايام الربيع » يتجلى خيال احمد صفريوئي بافضل اشكاله . يكون الراوي في الجبال المشرفة على البلدة ، حيث تدور تأملاته في مباهج اوائل الربيع ، اذ تقترب منه فتاة حسناء ، وحيدة في الدنيا ، جائعة ومتعبة . ويعطيها برتقالة وشيئا من الخبز . ويظهر عندها رجل غريب ، كائن شنيع ، ينتزع البرتقالة من الفتاة ، ويربط الرجل الآخر الى شجرة ، ويغتصب الفتاة . وتفك رباطه فيما بعد ، ويهبطان الى البلدة. ويستأجر غرفة للفتاة لتصرف الليلة فيها،وفي النهار التالي يأخذ هراوة ويعود ادراجه الى الجبل. فقد قضى الليلة لم تغمض له عين وظل يفكر في تلك الشخصية الشيطانية ، في الرجل الفظيع ، يفترس فتيات صغيرات اخريات . ويظهر الرجل من جديد ، ويقتله الراوي هذه المرة بالهراوة . وبعد اسبوع يتزوج الفتاة . وفي ليلة الزفاف ، يقول ، « اخرت العمل الجسدي ، خشية ان اثير فيها الذكرى المرعبة لما حصل عند لقائنا الاول . لكنها حضرت نفسها للجماع بيننا بدون اي امارة من امائر الاسى . وادهشني ان اكتشف ان فضيلتها ما زالت سالمة سليمة » .

ان القوة التي للطهارة والجمال على الشر تميز هذه القصص جميعها ، وهي قصص مكتوبة بنثر صاف جميل . وهي امثال اكثر منها قصصا ، سرعان ما يمتزج فيها العالم الواقعي بضرب من عالم الخرافة والاسطورة . لكنما هو العالم الواقعي الذي ينتصر في النهاية — والعالم الواقعي بالنسبة لاحمد صفريوئي هو الشوارع الضيقة المزدحمة في مدينة فاس القديمة المقدسة التي يحبها ، عالم اناس مغمورين بسطاء — صانعي سجاد وصانعي احذية وبائعي ازهار وبنائين وطلاب وحجاج وفخارين . وفلسفتهم في الحياة فلسفة سليمة ، لانها لم تتأثر بالحركة الصناعية الحديثة ، من قريب او بعيد .

لن اورتزن

مسرحيات مصرية جديدة

« رحلة خارج السور»، بقلم رشاد رشدي . مجلة « المسرح »، القاهرة، ١٩٦٤
« الارانب » ، بقلم لطفي الخولي . مجلة « المسرح » ، القاهرة ، ١٩٦٤
« ادهم الشرقاوي » ، بقلم نبيل فاضل . مجلة « المسرح » ، القاهرة ، ١٩٦٤

تبدو قضية الالتزام في الادب في هذه الظروف التي يمر بها مجتمعنا ضرورة بالغة الاهمية . والمسرح بالذات — باعتباره فناً جماهيرياً — يجب ان يكون مسرحا ملتزما بواقعه كل الالتزام . ومن خلال هذه المراجعة سأتعرض بالنقاش لثلاث مسرحيات ظهرت اخيرا في الجمهورية العربية المتحدة ، مبينا مدى التزامها بالواقع الذي تعايشه . والالتزام يجب الا يكون هدفا في حد ذاته ، يخطط له الاديب قبل الشروع في خلق انتاجه الادبي ؛ ولكن الفكرة الملتزمة يجب ان تنبت تلقائيا من ثنايا الاثر نفسه ، حتى يخيل الينا ان العمل الادبي كله يقوم عليها . فالاديب الملتزم يجب الا يضحي باصول الفن في سبيل الموضوع ، بل ان تمسكه بالمصطلحات الفنية هو الذي يكسب انتاجه مزيدا من العمق والكثافة . والفن يجب ان يكون فنا اولا ، وبعد ذلك لن يكون هناك مانع من ان يكون ملتزما كل الالتزام .

يضعنا الدكتور رشاد رشدي امام موضوع منتزع من صميم واقعنا المصري الذي عشناه في